مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

الشّيب وتوبة الشّعراء: قراءة في ديوان السّتالي(*)

د/ بسّام البرقاوي
قسم اللّغة العربيّة وآدابها - كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة الشّرقيّة (سلطنة عمان)
قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات منّوبة – جامعة منّوبة (تونس)
bassem.bargaoui@asu.edu.om

*) تاريخ تسليم البحث 15/12/2025 تاريخ قبوله للنشر 22/1/2026
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

الشّيب وتوبة الشّعراء: قراءة في ديوان السّتالي

د/ بسّام البرقاوي
قسم اللّغة العربيّة وآدابها - كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة الشّرقيّة (سلطنة عمان)
قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات منّوبة
جامعة منّوبة (تونس)

الملخّص

انشغلنا في هذا العمل بدراسة معاني الشّيب في ديوان الشّاعر العُماني (أبي بكر أحمد بن سعيد الخروصي) المعروف بالسّتالي، وتدبّرنا أساسًا ما يمكن أن نصطلح عليه بـــ(توبة الشّعراء)، وهي في تقديرنا توبة لها بالأخلاق أسباب وبالشّعر أنساب، ويعود اهتمامنا بهذا الموضوع إلى ما لاحظناه من أوجه طرافة عديدة في تجربة هذا الشّاعر في كلامه عن الشّيب، وبمقاربة إنشائيّة قرأنا النّصّ الشّعريّ في ثلاثة محاور بارزة، دار المحور الأوّل على صلة الشّيب بالمرأة، واتّصل المحور الثّاني بعلاقة الشّيب بالأخلاق، وكان المحور الثّالث بابًا لتأمّل ما سمّيناه توبة الشّعراء، وقد أفضى بنا النّظر في إشكاليات هذا الموضوع إلى جملة من الاستنتاجات، لعلّ أبرزها أنّ حديث الشّيب مثّل وسيلة شعريّة فنيّة توسّل بها الشّاعر لينفصل عن النّسيب ويقبل على المدح، فكان في وجه من وجوهه طقسًا من طقوس العبور، وفي هذا الاتّصال والانفصال تشكّلت أهمّ المعاني الدّائرة على التّوبة التي تجاوزت مدار الأخلاق إلى جوهر الشّعر نفسه.

الكلمات المفاتيح: الشّعر العُماني، السّتالي، الشّيب، المدح، النّسيب، التّوبة.

Gray Hair and the Poets' Repentance: A Reading of Al-Satali's Diwan

Dr. Bassam Al-Barqawi

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, University of Sharqiyah (Sultanate of Oman)

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Humanities and Social Sciences, Manouba University (Tunisia)

Abstract

This study examines the meanings of grey hair in the Diwan of the Omani poet Abū Bakr Aḥmad ibn Saʿīd al-Kharūṣī, known as al-Sattālī. The analysis focuses primarily on what may be termed the "repentance of poets," which we regard as a form of repentance grounded in ethics and genealogically rooted in poetry itself. Our interest in this topic stems from the notable originality observed in al-Sattālī's poetic engagement with the theme of grey hair. Adopting a structural and interpretive approach, the poetic text is examined through three main axes. The first explores the relationship between grey hair and womanhood; the second addresses the connection between grey hair and ethics; while the third is devoted to reflecting on what we have termed the poets' repentance. This investigation leads to several conclusions, most notably that the discourse on grey hair functions as an artistic poetic device through which the poet distances himself from amorous prelude (nasīb) and turns toward panegyric praise (madḥ), thereby constituting, in one of its dimensions, a ritual of transition. Within this dynamic of separation and connection, the central meanings of repentance take shape, transcending the ethical sphere to reach the very essence of poetry itself.

Keywords: Omani poetry, Al-Satali, gray hair, al-madh, al-nasib, repentance**.**

مقدمة البحث:

يبدو للنّاظر في تجربة الشّاعر العُماني (أبي بكر أحمد بن سعيد الخروصي) المشهور بالسّتالي(ت: 676هـ) أنّ ثنائيّة الشّباب والشّيب قد مثّلت ظاهرة بارزة كثيرة التّردّد في صدر قصيدته، والحقيقة أنّ هذه الظّاهرة لم تستوقفنا كثيرًا في قراءاتنا الأولى لديوانه ظنّا منّا أنّ الشّاعر إن مسّه الكبر وعلاه الشّيب لم يغادر من متردّم، فهو مثل أسلافه، قد بكى وحنّ إلى ماضيه، وهو قد افتتح بعض مدحياته بالكلام على زمن الشّيب ناسجًا على منوال القدامى في استهلال قصائدهم ببكاء الشّباب (عطوان، د.ت، 149)، مردّدًا بعض عباراتهم، مثل (ابيضاض اللّمة السّوداء والشّيب خالط مفرقي وشاب قذاله...).

وهو قد صوّر صدود المرأة وإعراضها عن الشّاعر حين يشيب رأسه، غير أنّ معاودة النّظر في هذا الدّيوان قد أبانت لنا عن بعض مظاهر الطّرافة في شعره أبرزها أنّ الحديث عن الشّيب أصبح – في نظرنا- جزءًا من خطّة بناء القصيدة، وإذا رمنا مزيدًا من التّوضيح قلنا إنّ شعر الشّيب مثّل وسيلة فنيّة معنويّة توسّل بها الشّاعر لينفصل عن قسم النّسيب ويقبل على غرض المدح، وفي هذا الاتّصال والانفصال تشكّل معنى شعريّ بارز يمكن أن نصطلح عليه بـــــــــ(توبة الشّعراء)، وهي توبة – في تقديرنا –تجاوزت حدود الأخلاق إلى جوهر الأدب نفسه وأضحت مقوّمًا بنائيًّا في القصيدة.

ولعلّه من الضّروري أن نشير في هذا المقام إلى أنّنا قد استعرنا هذا المصطلح من تسمية أطلقها أحمد درويش تعليقًا على هذا البيت الشّعريّ {من الخفيف}

فَالغَواني صرمتُها والملاهي قد كفاني منها اكتساب الذّنوب

فقد كتب يقول مقارنا بين السّتالي والنّهباني: "إنّ البيت الأخير يمكن أن يقودنا إلى سليمان بن سليمان بن مظفّر النّبهاني، فهو لم يعلن أبدًا اكتفاءه باكتساب الذّنوب، ولم يشأ أن يطرح (توبة شعريّة) وإنّما ظلّ يتمثّل صورة" الملك الضّليل "امرئ القيس" (درويش، 1998، 139)، ولكن من الضّروري أن نشير أيضًا إلى أنّ عبارة (التّوبة) ذكرها السّتالي في قوله: { من الطّويل} (السّتالي، 2005، 193).

وإنّ بياضَ الشّيب يُحدثُ توبةً لها ينقضي لهوٌ ويُصلحَ فاسدُ
أتوب إلى الرّحمن من كلّ منكرٍ فَعَلتَ وما ضيّعتُ من حكمة الشَّعرِ
وكنت نبذتُ الشّعر خيفةَ مأثمٍ بظني وبعض الظنّ داعٍ إلى الوزرِ

ولا يجد النّاظر في ديوان السّتالي عسرًا حتّى يتبيّن له أنّ غرض المدح قد تبوّأ محلاّ رفيعًا في ديوانه، فهو قد نذر شعره لملوك النّباهنة حتّى كاد لا يقول شعرًا في غير المدح، والغالب على قصيدة المدح عنده أنّها تأتي في قسمين بارزين مقدّمة وغرض، ويغلب النّسيب على مقدّمات مدحياته، وقد أشار بعض النّقاد إلى ذلكفي قولهم "قصيدة المديح عند السّتالي كانت تجد في التّقليد العربيّ المتمثّل في البدء بالغزل متنفّسًا قويًّا لها، يشفّ فيها الشّاعر عن قدراته الفنيّة، دون أن يغيب عن عينيه التّواصل مع النّموذج القديم" (درويش، 137).

وإذا بحثنا عن السّياقات التي شاع فيها الكلام على الشّيب في ديوان السّتالي وجدنا الشّاعر يقتفى آثار الأوّلين، فهو يذكر هذا الموضوع في سياقين، سياق النّسيب وهو الشّائع الذّائع، وهنا تنبجس جملة من الثّنائيات أهمّها الشّباب والشّيب، والشّاعر والمرأة، والنّسيب والمدح، والتّصابي والتّوبة، وأما السّياق الثّاني فهو مقام الرّثاء والنّصوص فيه قليلة جدًّا لا تكاد تذكر، ونمثل لذلك بقوله يمدح أبا عبد الله محمد بن عمر ويعزّيه بوالدته{ من الوافر} (السّتالي، 37)

تَعاظمْنا المشيبَ ومُذْ كبرنا وَددْنا أن يدومَ لنا المِشيبُ

وفارقنا الأحبَّة فاعْترفْنا يَروحُ المرءُ ليس لهُ حبيبُ

في دواعي اختيار الموضوع:

تعدّ ندرة الأعمال في هذا الموضوع من الأسباب التي حفّزتنا على النّظر في شعر الشّيب عند السّتالي، فعلى كثرة الدّراسات التي اهتمّت بشعره وبمقوّماته الفنيّة والمضمونيّة – سيرد ذكرها لاحقًا – لم نجد من خصّص لموضوع الشّيب بحثا مستقلّا، وقد يكون العزوف عن التّطرّق إلى هذا الموضوع أنّ الشّاعر ذهب بعيدًا في تقليد القدامى، غير أنّ هذا السبب على وجاهته لا يحول في نظرنا أن نتدبرّ هذا الموضوع في مدوّنة يشهد لصاحبها بالمنزلة الرّفيعة إذا ما تعلّق الدّرس بصورة الشّعر والشّعراء بفترة الدّولة النّبهانيّة، والحقيقة أنّ دافعين رئيسيين شحذا عزمنا على أن نبحث في موضوع الشّيب عمومًا وفي موضوع (التّوبة الشّعريّة) خصوصًا، أمّا السّبب الأوّل فيعود إلى مجموعة من القصائد التي انتقاها هلال الحجري من ديوان السّتالي في كتابه "حداثة الأسلاف" وعدّها نماذج على اختراق (التّابوات)، وهي ستّة نصوص عنونها بـــــ" تصاب، وأيّام الشّباب، وشيب، ورضيع التّصابي، ويأس"(الحجري، 2013، ص33-37)، وتبدو هذه القصائد في نظرنا من أهمّ النماذج التي يمكن أن يعتمدها الباحث في استجلاء إنشائيّة القصيدة التي تدور على موضوع الشّيب.

وأمّا الدّافع الثّاني فالتفاتة لطيفة استوقفتنا في أطروحة علي الغيضاوي "الإحساس بالزّمان في الشّعر العربيّ القديم"، فقد كتب يقول" ولقد تكون غاية الشّاعر من الإشارة إلى كبرته التّوطئة إلى المدح على ما تقتضيه خطّة الشّاعر المدّاح من توجيه القول ومن تهيئته، سواء باعتبار الشّيب ناهيا عن الصّبابة لصرف القول من النّسيب إلى تعداد فضائل الممدوح أو باعتبار الكبرة حالًا من بين أحوال أخرى غيرها" (الغيضاوي، 2011، ج2، ص318)، فقد بدا لنا أنّ هذه "الخطّة" واضحة المعالم في تجربة السّتالي، وهي خطّة وإن أحالت في وجه من وجوهها على أبعاد أخلاقيّة دينيّة فإنّها كانت أيضًا"خطّة فنيّة "إن صحّت العبارة.

الدّراسات السّابقة:

لم نجد في حدود ما بحثنا من خصّ موضوع الشّيب في ديوان السّتالي بدراسة خالصة، وأقصى ما يظفر به الباحث – إن هو تجاوز دراسة الحجري التي سبقت الإشارة إليها – ثلاثة أعمال متفاوتة القيمة، أمّا العمل الأوّل فمقال (الشّاعر أبو بكر محمد السّتالي: أغراضه الشعريّة وروافد الصورة عنده (وفيه عرض صاحباه إلى الشّيب

إشـارة عجلى في معرض التّحقيق في تضـارب الأقوال حول العصـر الذي عاش فيه السّـتالي (حمد وعبد الرّحمن، 20025، ص3)، وأمّا العمل الثّاني فكتاب "أحمد درويش (تطوّر الأدب في عُمان)، ويُعدّ هذا النّاقد – في نظرنا – أوّل من تنبّه إلى طرافة الكلام على الشّيب في تجربة هذا الشّاعر، فهو قد استملح نصّين من نصوصه وعلق عليهما تعليقًا طريفًا عميقًا، فالسّتالي (درويش، ص 138-139)" يطالعنا في كثير من صفحاته بنغمة غير مقيّدة ـ تحسّ فيها قدرة هيمنة الصّناع على المعنى، ولا يقف ذلك عند لون بعينه، وإنّما يظهر في موقف البهجة الغزليّ أو في موقف الانقباض المتحسّر{ من الكامل}.

مـاذا ألمّ بـلـمّـتي فـأشـابها ... وخَضْبتُها فنضـا البياضُ خضـابَها
سَـرَتِ الهُـمُـومُ الـطّـارقـاتُ فـغـادرت ... بـينَ الجـوانـح والحَشـى أَوصـابَهـا
مـا زالـتِ الـعَـبَرَاتُ جـامـدةً إلى ... أنْ مسّـهـا ألمُ الأسـى فـأذابَهـا
قـد ذُقُـتُ فـقـدانَ الاحـبّـة بُـرهَـةً ... وصَـرَمْـتُ في أيـدي الهوَى أَسْـبـابَها

(...) أو في غزلياته التي تشيع في الدّيوان من مثل قوله: {من الخفيف }

قـد بـلـونا الـزّمـان طِـفـلـًا وكـهـلًا ... ومُشـامًـا بالـذّوق والـتّـجـريـبِ
لم تـكـن خـفّـة الشّـبـيـبة أحْـلـى ... عـنـدنا الـيـوم مـن وقـار المشـيـبِ
لا يـظـنّ الـفـتـيـان أن يَسـبـقـوني ... بشـبـابِ أخـذت مـنـه نَصـيـبي
فـالـغَـواني صـرمـتُـهـا والملاهـي ... قـد كَـفـاني مـنـهـا اكـتسـابُ الـذّنوبِ
وَجَـبـت تـوبـةُ المسـيءِ وأنّى ... لـكِ عـذرٌ يا نـفـسُ إنْ لم تـتـوبِي

وأمّا العمل الأخير فهو كتاب سعيدة خاطر الفارسي (العصـر الذّهبي للشّعر في عمان: دولة النّباهنة)، ففيه وتبت تقول عن تجربة السّتالي الشّعريّة في أبعادها ومحاورها" يتمثّل البعد النّفسيّ لتجربة السّتالي الشّعريّة في الصّراع بين الشّباب النّضر والمأسوف عليه الموّلي والمشيب البغيض" (الفارسي، 2016، ص 93)، ورأت الباحثة أنّ هذا الصراع مرّ بأربع بمراحل، أولاها تدور على "تذكّر أيّام الشّباب وتعدّد محاسنها وذكر تجارب الحبّ وولع الحسان بها وولعه بهن وذكر مجالس اللّهو، ووصف الصّحاب والنّدمان والغانيات" (المرجع نفسه، ص93)، وأمّا المرحلة الثّانية فتتمثّل في "تحسّـره على الشّـباب واعترافه بأنّه لم يشـبع من اللّهو والمتع والمباهج" (المرجع نفسـه، ص95)، وأمّا المرحلة الثّالثة فهي تتجسّـد في "صراع مع المشيب وإعلان نفوره منه" (المرجع نفسه، ص94)، وأمّا المرحلة الرّابعة والأخيرة فهي "مرحلة الاستسلام للمشيب وتقبّله على مضض وذمّ الشّباب من طرف اللّسان لا بيقين القلب" (المرجع نفسه، ص95)، وختمت كلامها على الموضوع قائلة "والحق أنّ الصّور التي تمثّل تجربة السّتالي مع المشيب كثيرة تحتاج إلى مزيد من الاسترسال والحصر، وهي تجربة إنسانيّة غنيّة بالمعاناة والخوف والرّغبة والخشية والتّردّد والتّضادّ النّفسيّ الذي يغذّي الصّراع وينمّيه" (المرجع نفسه، ص97).

إنّ النّماذج التي أوردناها على أهميّتها في التّنبيه إلى موضوع الشّيب في تجربة السّتالي اكتفت بالإشارة السّريعة المجملة إلى المسالك التي يمكن أن يسير فيها الباحث ولم تطرق باب النّصوص إلاّ قليلًا، والحقيقة أنّنا لا نطلب من

الدّراستين السّابقتين ما لا يطلب، فقد كانتا في تاريخ الأدب العُماني، وكان البحث فيهما عن القضايا الكليّة العامة غالب – وهو أمر طبيعيّ – على القضايا الخاصّة الدّقيقة، لذلك نقدّر أنّ هذا البحث التي تجعل قراءة النّصّ مبتداها ومنتهاها، وتتدبّر موضوع مخصوص ستكشف عن أهمّ الخصائص الإنشائيّة في خطاب الشّيب لدى السّتالي.

منهج البحث وخطّته:

اعتمدنا في هذا البحث المقاربة الإنشائيّة حتّى نستطيع أن نميّز أوجه التّجديد من أوجه التّقليد في الأشعار التي خصّ بها السّتالي موضوع الشّيب، وجعلنا البحث مجدولًا في ثنائيّة التّحسين والتّقبيح، ففي شعر السّتالي حمدُ الشّيب غالب على ذمّه، ومع الذمّ تكون المواجهة بين الشّاعر والمرأة، وهي مواجهة تجري – في نظرنا – على ضربين: استعطاف واستلطاف من جهة، واحتجاج وانتصاف من جهة ثانية، ومع التّحسين تكون عودة الذّات (الضّالة) إلى (رشدها) وتكون القطيعة مع (خطيئة) الغزل لبناء (فضيلة) المدح، وللوقوف على أبرز الخصائص الفنيّة والمضمونيّة التي تعلّقت بثنائيّة التّحسين والتّقبيح جعلنا مباحث العمل ثلاثة، تدبّرنا في المبحث الأوّل علاقة الشّيب بالمرأة، وتأمّلنا في المبحث الثّاني صلة الشّيب بالأخلاق، وأمّا المبحث الثّالث فكان محاولة لقراءة بعض النّصوص التي تكشف مظاهر(التّوبة الأخلاقيّة) وعلامات (التّوبة الفنيّة).

المبحث الأوّل: الشّيب والمرأة (الشّيب المذموم)

نطرق في هذا القسم من البحث معنى تقليديًّا من معاني الشّيب في الشّعر العربيّ، ونعني به اقتران الحديث عن الشّيب بذكر المرأة وما يستدعيه من استحضار لزمن اللّهو الذي ولّى ولزمن الشّباب الذي عفا، ومن ثمّة يكون كلام الشّجى والأسى لما يطرأ من تحوّل على طبيعة العلاقة بين الرّجل المرأة، ففي مثل هذه السّياقات يكثر الشّعراء عادة من تصوير علامات الكبر وآيات الشّيب في توجّع وتفجّع، فتكون الزّفرات الحرّى والتّحسّر الممضّ والعبرات الهاميات من جهة بسبب الزّمن الذي ذهب بمرابع الصّبا، ويكون الاستعطاف والاستلطاف والاحتجاج والانتصاف من جهة ثانية بسبب هجر المرأة وصدّها، ويكون الخطاب موجّها مرّة إلى الشّاعر الذي نجده هلوعًا جزوعًا، ويكون موجّها مرّة إلى المرأة و" الرّدّ على عاذلة تظنّ بقدرته الجنسيّة الظّنون" (الغيضاوي، ج2، ص332).

ويبدو أنّ السّتالي قد تمثّل التّراث الشّعريّ العربيّ المتعلّق بالشّيب أحسن تمثّل فأعاد إلى الذّاكرة بعض ما هجع من معانٍ في أشعار القدامى، ولكنّه في المقابل أتى في غير نصّ بمعانٍ طريفة تجعله في نظرنا مجدّدًا في إطار المنظومة التّقليديّة، إذ يقول في مقدّمة قصيدة مدح بها علي بن عمر بن نبهان: {من البسيط }(السّتالي، ص200).

شيبَ العذارِ بماذا عنك اعتذرُ ... إن ساءَني أن يقولوا مسّك الكبَرُ

لولا صُدودُ الغواني عن شعاريَ لم ... أَشعر بأيّة حال أَصبحَ الشّعرُ

لهوى من البيض لونا هن منه إذا ... أبصرته راح في رأس الفتى نفرُ

أُحِسّها شعراتٍ فيّ شائبةً كأنّما نشبت في مُفرقي إبرُ
إذا رأَيتَ مشيبًا أنت تنكره فإنّ ذلك من لمع الأسى أثرُ

يجذّر السّتالي حديث الشّيب في سنّة شعريّة طالما تداعت فيها صور الشّباب الذّاهب، فقد "كان الرّحيل هاجسًا لا يقرّ ولا يهدأ في ضمير الشّاعر الجاهلي، فهو راحل أو مزمع على الرّحيل في كثير من الوقت أو متأمّل من يرحل وما يرحل: الظّعائن، العمر، القبائل، الأهل والرّفاق، الحياة نفسها" (روميّة، 1996، ص271)، وفي هذا التّداعي تشيع نبرة الانكسار والعجز أمام سطوة الزّمن، ويكثر تصوير ما يجد الشّاعر من حزن وأسى ولهفة، فالشّيخوخة قد مثّلت "حرجًا داخليًّا في نفس الشّاعر الجاهلي، لأنها خطام المنيّة ونذير الموت والعمر الذي تمتنع عنه لذّات الحياة والمشاركة في حياة النّاس، وبحيث يلبث الإنسان ثاويًا لا يبالي بموته" (الصّائغ، 1982، 158)، وظلّ هذا الجرح ينزف عبر عصور الأدب المختلفة مشرقًا ومغربًا (السّلامي، 2012، ص137-148؛ الحميري، 2019، ص273-298- الشّاظوف، 2015، ص1-19؛ المعموري، 2023، ص371-383).

ويقول: {من الكامل} (السّتالي،ص 289).

ولقد رأى لونَ المشيب فما ارعَوَى وبكى فأقْرَح ناظريه فما اشْتَفى
ويَريبني صدُّ الأوانس بعدَما قد كُنت أعهدها روآئمَ عُطَّفا
إذ فيّ أبهجة الشّباب وغرَّة تجْزي الحَبيب إذا تدلّل أو جَفا

إنّ الشّيب واقع لا مفرّ منه ولحظة لا مهرب منها، ووقعه أكبر من أن يلاقى بعدم الاكتراث أو عدم المبالاة وأعظم من أن يواجه بالتّناسي، لذلك لا يكون من سبيل أمام السّتالي سوى أن يقتفي أثر أسلافه الذين إذا مسّهم الكبر جزعوا، وأكثروا من التّفجّع والتّوجّع والبكاء على شبابهم، حتّى قيل: "ما بكت العرب شيئًا مثلما بكت على الشّباب، وما بلغت به ما يستحقّه، وأحسن أنماط الشّعر المراثي والبكاء على الشّباب" (ابن عبد ربّه، 1941، ج2، ص351)، ونرى الشّاعر في هذا المقطع كسير النّفس، كاسف البال ذاهب العقل، عاجزًا عن مواجهة الزّمن، وكيف له ألاّ يجزع ويفزع و"الشّيب داء نجيس لا دواء له" كما يقول ساعدة بن جؤية (السّكري، 1950، ص1122- 1224)، ولعلّ أكثر ما أوجعه صدّ النّساء الذي جعله يدرك أنّ الرّأس قد شاب وأنّ البياض قد لاح في السّواد وأنّ شرخ الشّباب قد ولّى وفنيت أيّامه.

ويقول في التّوطئة لمدحية في علّي بن نبهان بن عثمان: {من الطّويل }(السّتالي، ص 196)

شكوتُ صدودَ البيض والرّأسُ أَسودُ ووصلُ الغواني من ذوي الشّيب أَبعدُ
أَيطمع مبيَضُّ العذارَين أنّه تُسوّله حُبًا كواَعبُ خُردُّ

إذا وصلنا هذين البيتين بالموروث الشّعريّ ألفينا السّتالي يردّد ما ترسّخ في الذّاكرة عن علاقة المرأة بالشّاعر، إذ استبانت فيه السّنّ وظهر عليه الشّيب، و" بُدّل إعجاب الغواني تعجّبًا" على عبارة ابن الرّومي (ابن الرّومي، 1979، ج2،ص 584)، فهو يشكو شكواهم بسبب انقطاع حبل التّواصل، وهو يدرك إدراكهم أن ليس له في

وصالهنّ نصيب، فـ"الشّيب ذنب عند الغواني لا يغفر وعيب لا يستر" (الثّعالبي، د.ت، 30)، وهو بذلك يستنفر معاني تداولها الشّعراء واشتهرت بها أبيات تنسب إلى علقمة الفحل: {من الطّويل} (علقمة الفحل، د.ت، ص35- 36)

فَإِن تَسأَلوني بِالنِساءِ فَإِنَّني بَصيرٌ بِأَدواءِ النِساءِ طَبيبُ
إِذا شابَ رَأسُ المَرءِ أَو قَلَّ مالُهُ فَلَيسَ لَهُ مِن وُدِّهِنَّ نَصيبُ
يُرِدنَ ثَراءَ المالِ حَيثُ عَلِمنَهُ وَشَرخُ الشَبابِ عِندَهُنَّ عَجيبُ

ولعلّ أطرف ما يمكن أن يستوقف القارئ لحديث المشيب في ديوان السّتالي هذا المقطع الذي لم تعد فيه المرأة متمنّعة فحسب، بل حتّى طيفها ما عاد يزور ولا يُزار، يقول: {من الكامل} (السّتالي، ص363)

إنّ المتيّم حين شابَ قَذالُه سَئِمَ الصِّبا وتكاثَرَت عُذّالُهُ
وتبدّل الخُلطاء وانصَدع الهَوى وتصرّمت بعد الوصال حبالُهُ
وأرى الّذي وَعدَ الزيّارةَ مُولَعَا بالهجر حتّى ما يُطيفُ خيالُهُ
ولقد يجَدّدُ لي أَحاديثَ الصّبا رَسْمُ الحمى وتَشوقني أطلالُهُ
ولقد أميلُ إلى التّصابي بعدمَا نَزَلَ المشيبُ وَبرَّحتْ أَشغالُهُ

ولا ترانا في حاجة إلى الوقوف طويلًا عند هذه المعاني المكرّرة التي تصوّر الشّاعر كسير الوجدان منهزم النّفس إذ بدت علامات الشّيب على عذاره، بقدر ما نحن في حاجة إلى تدبّر بعض السّياقات التي تصوّر السّتالي رافضًا الهزيمة مشيرًا بصورة أو بأخرى إلى أنّ زمن الشّيخوخة لا يقف حائلًا دون توقّد العاطفة وجيشانها، ذلك أنّ الغالب على شعره روح المقاومة ورفض الانكسار والتّسليم بالأمر الواقع.

فإذا نفد الشّباب وبلغ الشّاعر مرحلة الهرم وجدناه يحاول بشتى الطّرق أن يخفّف من وقع الإحساس بالضّعف والعجر، فهو وفي غير موضع يؤكّد أنّ الشّيب أعجز من يطفئ نار الصّبابة عنده يقول: {من الكامل } (المصدر نفسه، ص433).

ضَعف المشيبُ لدى تضاعف قوةٍ للشّوق صار الحشوَ في الأحشاءِ
وتصعَدُ الزفَرات من كُرَب الأسَى لتحدّرِ العَبرات بعضُ شفائي

ويقول: {من البسيط} (المصدر نفسه، ص429)

مَا أوقر الشّيب إلا أنّني رجلٌ إلى المنازل والأحباب حَنَّانُ
لا تنكرنَّ صبابات الكبير إذا شجاهُ بالبين ألآف وخُلاّنُ

ويقول: {من الطّويل }(المصدر نفسه ، 165)

كَبِرْتُ وفارَقْتُ الصّبَا غيرَ أَنَّني علَى كِبَري صَبُّ الفؤاد عميدُهُ
أَحِنّ ويَعتاد الفؤادَ ارتياحُه يذوبُ له من دمعِ عيني جمودُهُ

وهو يتساءل في إنكار: {من الطّويل} (المصدر نفسه ،56)

أَأَصبو ويعروني على الشّيب صَبْوَة وإن كان غيًّا بالكبير إذا صبَا

وأغشى فناءالحيّ قد عَنّ سِربهمْ عَذارى فأُصطاد الغَزال المرّبيا

إنّ الشّاعر يعيش صراعًا عنيفًا بين (عقل) يدعوه إلى الرّزانة والوقار بعد أن اشتعل رأسه شيبًا و(نفس) ترتدّ به إلى زمن الشّباب زمن الحبّ والصّبابة، وليذهب الشّاعر بعيدًا في رفض الوصل بين المشيب وانقطاع الوصال يراوح بين زمنين، زمن الماضي الذي يستحضره ليذكّر بصولاته وجولاته في عالم النّساء، وزمن الحاضر الذي يؤكّد فيه أنّ تبدّل الأحوال لم يفسد الودّ بينه وبين المرأة، بل نراه يؤكّد من خلال الحاضر أنّ المرأة هي من يطلب الوصال ولا ينكر عليه التّصابي بعد أن شاب قذاله.

إنّ هذه النّماذج – وغيرها شائع في ديوان السّتالي- دالّة على رفض زمن الشّيخوخة زمن الفناء والانتهاء، ولعلّ في محاولات الارتداد إلى الزّمن الماضي زمن الصّبابة والتّصابي ما يجعلنا نقرّ بأنّ الشّاعر يبدو رافضًا لـ "حضور الشّيب بوصفه محمولاً من محمولات الموت، ونذيرًا خطيرًا يهدّد حياة الشّاعر" (عليمات، 2004، ص178)، متشبّثًا حتى على سبيل الوهم أو التوهّم بأنّه مازال يعيش زمن الشّباب، محدّثًا نفسه بأنّ الشّيخوخة لم تقتل فيه الرّغبة في الوصال، وهو بذلك يسير على هدي القدامى الذين أكّدوا في أشعارهم أن "علامات الشّيب ونذره ومقدّماته لم تمنع كثيرًا من الشّعراء بتدفّق الشّباب في أجسادهم وأرواحهم على السّواء" (العمري،1992، ص14).

والحقيقة أنّ الفصل بين الزّمنين- في هذا المقام – إنّما هو فصل إجرائيّ لا غير، ففي أكثر السّياقات الشّعريّة يكون زمن الحاضر باعثا على استدعاء زمن الماضي، يقول في مدحة أبي العرب يعرب بن عمر مهنئًا بعيد الإضحى: {من البسيط} (السّتالي، ص26- 27).

كَبِرتُ والبِيضُ واللّذاتُ مِن أرَبي حتَّى كأنّي لمْ أكْبَرْ ولَمْ أشِبِ

لولا التُّقى وجميلُ الصّبرِ ما وَجَدتْ منّا الأوانسُ غيرَ اللّهو واللّعبِ

وقد يأتي هذا الرّفض في ضرب من الافتخار، وذلك حين يجنح الشّاعر إلى استحضار مغامرات الشّباب محاجًّا من استنكرت عليه التّصابي: {من الكامل }(المصدر نفسه، ص227).

أمست سُعاد تحيد عن إسعاده وغدت تدلّلُ بالنّوار نوارُهُ

وهو المشوّب مشيبه بزمانه ومخالطٌ لقتيره إقْتارُهُ

إن تكرهي وصالَ الكبير فطالما بكرت عليه من الحمى إبْكارُهُ

ولربَّ خَودٍ في الخباءِ سمى لها ليل التّمام وقد هدى سُمَّارُهُ

عرضت على المزدارِ حاجة سرّها فأبى الدّنية حلُمه ووقارُهُ

إنّ الشّاعر يقف في هذا المقطع وقفة من وجد نفسه يعيش زمنين: زمن ولّى وكان يتعجّل الرّحيل، وزمن مقيم أناخ بكلكله، فهو يتذكّر زمن الرّبيع الذي انصرمت لذاذة أيّامه، إنّ لحظة الحاضر وما اقترنت به من صدّ وهجر وكره جعلته يلوذ بماضيه تذكّرًا لمغامرته مع اللّيالي.

وليس في هذه العوة ما يدعو إلى الاستغراب، وذلك أنّ "الحديث عن وطأة الشّيب وما يتركه من ندوب غائرة في وجدان الشّاعر وحياته الرّاهنة لا ينفصل عن حديث الشّاعر في ما أمضاه في فتوّته وشبابه" (فوغالي، 2008، 147)، بل إنّ السّتالي يذهب إلى أكثر من ذلك فلا يصوّر المرأة مطلوبة للوصال، بل يصوّرها طالبة له وإن أظهرت غير ذلك، فهو يقول في مقدّمة إحدى مدحياته: { من البسيط }(السّتالي، الدّيوان، ص97).

رأَتْ وخْطَ شيبٍ وهو في الرأسِ لائحُ ولونَ بياضٍ أَظهَرَتَهُ المسائحُ
فصدّتْ صُدودَ الوامقِ الصَّبِّ رايةً تنكّرُ حالٍ وهو للوَصلِ جانحُ
على أنّها أهدَتْ معَ الصَدِّ نظرةً لها شَجَنٌ في حبَّةِ القَلبِ قادحُ
لكِ الخَيرُ ما واصلتِنا لكِ عندَنا صِبى جَذَعٍ يُرضيكِ والحِلْمُ راجحُ
ومسْتحفظٌ عهدَ الهوى لا يخُونه تَغَيَّرَ دانٍ أو تَبدّلَ نازحُ

يهمنّا من هذا النّصّ أن نشير إلى مسألتين، تتعلّق الأولى بما يمكن أن نعدّه وجهًا من وجوه التّناص، ذلك أنّ السّتالي، حين رام تصوير زمن الشّيخوخة الذي حلّ بديلًا من برد الشّباب القشيب، وحين رام بيان علاقته بالمرأة استرفد في ما استرفد نصًّا من نصوص البحتري: {من الطّويل } (أبو عبادة البحتري، د.ت، ص 223)

رَأَت وَخطَ شَيبٍ في عِذاري فَصَدَّتِ وَلَم تَتَنَظَّر بي نَوىً قَد أَجَدَّتِ
تَصُدُّ عَلى أَنَّ الوِصالَ هُوَ الَّذي وَدِدتُ زَماناً أَن يَدومَ وَوَدَّتِ

وترتبط المسألة الثّانية بموقف المرأة الذي عبّر عنه الشّاعر بأساليب تجعلها طالبة للوصال عاشقة للشّاعر، فهي تصدّ صدود العاشق الوامق (الوماق محبّة لغير ريبة، ابن منظور، مادّة: و، م، ق)، وهي تهدي نظرات متردّدة غالبت الشّوق فغلبها واستبدّ بها، و"نجد في قصائد المشيب تشبّثا بالشّباب المولي وزعما بالقدرة على اللّهو مع النّساء وإغوائهن" (الصّائغ، 159).

نتبيّن ممّا تقدّم أنّ السّتالي لم يخرج عن الموروث الشّعريّ في أكثر شعره عن الشّيب، فهو إذا راعه الشّيب رأيته شديد الهمّ محزونا متوجّعًا متفجّعًا حتّى كأنّه "لا خير في العيش بعد الشّيب والكبر" (ابن منظور، مادّة ء. س.ن)، ورأيته يتألّم لأيام الشّباب التي لا تعود ولا تباع ولا تعار، ولكن وجدناه في المقابل يقول في غير موضع من ديوانه إن يكن الرّأس قد شاب منه فإنّه أصلب من أن يهدّه الشّيب ويثنيه عن الوصال (السّتالي، ص32-238-268...) وعمومًا ألفيناه يلوذ بالذّاكرة –سواءً أجزع من الشّيب أم لم يجزع – مستنفرًا زمن الشّباب مكثرًا من سرد مغامراته حتّى لكأنّه من "الذين تمتّعوا في أيّام الشّباب ولم يتركوا لأيّام الشّيب حسرة تذكر" (الصّائغ، ص 159).

المبحث الثّاني: توبة الشّعراء (الشّيب المحمود)

قد يتجاوز الشّاعر في حديثه عن المشيب عالم المرأة ليؤسّس عالما أخلاقيًّا روحيًّا يستمدّ تعاليمه من أوامر الدّين ونواهيه، ومن ثمّة يشيع الكلام على الأخلاق والمروءة والتّفكير في الآخرة، ولعلّ "أوّل ما فعله الشّيب في مخيلة الشّعراء هو دعوته إلى الابتعاد عن الصّبا وأيّامه" (الخشروم، ص56)، وهي دعوة موجعة يلبّيها الشّاعر على مضض وكره، يقول السّتالي معبّرًا عن حسّه الفاجع بمرارة التّحوّل من زمن الفتوة والشّباب إلى زمن المشيب والشّيخوخة: {من الطّويل} (السّتالي، ص352).

خليلَيَّ بعد الشّيب هل يحسن الهزلُ ... وهل للغواني عند ذي عدم وصلُ
أَلَم تَرَ أن الحلم للشّيب زينةٌ ... ولهو التّصابي بعد مرّ الصِّبا جهلُ
تولّت بشاشات الشّباب وأَقصرت ... مراقبة الواشين وانقطع العذلُ
بلى بقيت أُمنيّةٌ وتِعلَّةٌ ... يكون بها عن كلّ ملهية شُغلُ

فالشّاعر يرسم في هذا المقطع عالمين متقابلين ويصف زمنين متناقضين، أمّا العالم الأوّل فمرتبط بالشّباب ونضارته، وبالحبّ وعذّاله، وأمّا العالم الثّاني فمتّصل بالمشيب الذي غيّب العذّال وحوّل الوصل هجرًا، وشاعت في هذا المقطع المقابلات الصّريحة والضّمنيّة بين زمن الشّباب وما يتّصل به من أسباب الشّوق والصّبابة واللّهو واللّعب وزمن الشّيب وما يقتضيه من وقار وصبر وكفّ عن مهارشة النّساء، ولا يخفى أنّ السّتالي قد انتصر لزمن المشيب وحسنه مؤكّدًا أنّه من الجهل أن يتصابى المرء إذا الشّيب خالط مفرقه، وبهذا يكون الشّيب مرتبطًا "برجاحة العقل والحلم والدّفاع عنه يعني عدم الرّضوخ لنوازع الإحساس بالضّعف والتّلاشي، فمن الشّعراء من يرى أن تذكّر الصّبا وأيام اللهّو ضرب من الجهل لا يجدر أن يكون لذي شيبة" (الرّفوع، 2008، 63).

وغير بعيد عن معاني المقطع السّابق يقول مقارنا بين (زمن الهزل) و(زمن الجدّ): {من الطّويل} (السّتالي، ص237-238).

أَمن بعد جدّ الشّيب أَعبث بالهَزلِ ... إذاً أَنا معدومُ البصيرة والعقلِ
ومن لي من البيض الحسَان بنظرةٍ ... إليَّ وفي رأْسي قذَى الأَعين النُّجلِ
أُعلّل بالتخويف نفسًا عليلةً ... تملّت ورود الغيّ علًا على نهلِ
لعمري لقد أَجريتُها رسنَ الصِّبا ... علالةَ فتيان الشّيبة من قبلي

يمثّل هذا المقطع، ونظائره كثيرة في ديوان السّتالي، اعترافًا بنهاية زمن الشّباب وإقرارًا بزمن الشّيخوخة، ولا ترى الشّاعر في هذا المقام متحسّرًا على ما مضى وولّى، ولا مستنكرًا ما حلّ وأقام، ولا تراه أيضًا يطلب لذاذة الماضي هربًا من مرارة الحاضر، بل تجده مستسلمًا لزمن الكبر لا يذكر الشّباب إلا ليعبّر عن النّدم ويكّفر عمّا تقدّم من ذنوبه وتأخّر، وهو يستنكر التّهازل والتّهافت فما عاد العمر يسمح بذلك، وهو يؤكّد إعراضه عن الصّبابة والغواني مذكّرًا بمذاهب بعض الشّعراء الذين يصطنعون "البهجة بمفارقة الشّباب ويقرنونه بالباطل" (الصّائغ،ص 160)،

وبهذا المعنى يصبح الشّيب ممثّلًا لزمن الأوبة والتّوبة والرجوع عن الفساد إلى الصلاح، ويصبح مدعاة إلى التّيقظ والانتباه، فيغنم المرء ما بقي من عمره في ما يوصله إلى منازل النّعيم.

وفي سياق النّدم والتّوبة وتقبيح زمن الشّباب وتزيين مرحلة الشّيب يستحيل الخطاب ضربًا من النّصح والوعظ والإرشاد، يقول:{ من الطّويل} (السّتالي ،ص 364).

فيم التّصابي والتّعلّلُ بعدما ... ذَهب الشّبابُ وهل يحور ظلالُهُ

وعمار دار لا يطول مقامها ... وهوى حبيب لا يدوم وصالُهُ

وجب اعتبارُ المرءِ واستعداده ... للقاءِ محتومٍ إليه مآلُهُ

وتفكّر الإنسان أين مَصيره ... لغدٍ وكيف مقامه ومقالُهُ

وليحْصّينْ عمَلُ الفتَى أو قولُهُ ... وَليُعْرِضَنَّ صَحيحُهُ وَمُحالُهُ

إنّ السّعيد هو الموفق للهدى ... والمخلصاتُ لربّه أعمالُهُ

والحائز المجد المؤثل مَن زَكَتْ ... آباؤه وسَمَتْ بهِ أفضالُهُ

يستنكر السّتالي على النّفس الغزل والتّصابي بعد أن شيَّب الدهر فَوْدَيْه، ويسترسل في خطاب وعظي يدعو إلى الاعتبار والكفّ عن المعاصي وترك ملذّات الحياة الدّنيا طلبًا لراحة الآخرة، وقد شاعت في هذا المقطع الجمل الدّالة على الفناء وسرعة الانقضاء (ذهب الشّباب – عمار دار لا يطول مقامها– هوى حبيب لا يدوم وصاله)، وأعقبتها أفعال تحمل دلالات الوجوب والأمر والوعظ والنّصيحة (وجب، ليحصين، ليعرضن)، فزمن الشّيب هو زمن الاعتبار والعمل لراحة الآخرة والاستغناء عن الشّباب وملذّاته الزّائلة الزّائفة.

ونختم الكلام على التّوبة الدّينيّة الأخلاقيّة بهذا المقطع الذي يتغنّى فيه السّتالي بفضائل من نزل الشّيب بعارضيه: {من البسيط} (السّتالي،ص 28)

في صاحبِ الشَّيبِ أخلاقٌ مُهذَّبةٌ ... من المروءَة والتّجريبِ والأدَبِ

وذُو المشيبِ تَراه في تقى ونُهىً ... أرجى ولو عاش بين الضّعف والوصب

لولا التّزوّد من دنيا لآخرةٍ ... ما كانَ في عَيشها لِلحُرَّ مِن أَرَبِ

وما اصْطحابُ بني هذا الزّمانِ على ... غِشّ الضَّمائر الاَّ شرُّ مُصْطَحَبِ

فهذا المقطع يجسّد هدوء النّفس التي تأمّلت حاضرها فأيقنت أنّ المشيب عنوان أخلاق ودليل مروءة، ورمز حنكة، وآية أدب وتقوى، وبعبارة أخرى يمثّل الشّيب" مرحلة التّعقّل والتّدبّر والحكمة والزّهد والعودة إلى الطّريق السّليم إن كان شبابه قد حاد به عن الجادّة" (الشّافعي 2018،ص 699)، وفي الحقيقة إنّ السّتالي وهو يطرق باب "التّوبة الدّينيّة الأخلاقيّة" لم يخرج عن ذائقة الأسلاف، فهو قد ردّد بعض المعاني التي شاعت في دواوينهم وذاعت، وهو قد رحّب بالشّيب، وعدّه عنوان وقار وجدّ، وهو في غير موضع عقد مقارنة بين زمن الحلم والتعقّل وزمن التّصابي والجهل مفضّلًا الزّمن الأوّل على الزّمن الثّاني رغم أنّه زمن الحبّ والتّصابي والعذل، وكأنّنا بالشّاعر يقول على لسان سحيم "كفى الشّيب والإسلام للمرء ناهيًا" (سحيم عبد بن الحسّاس، 1950. 108).

المبحث الثّالث: الشّيب والشّعر

نهتمّ في المبحث الأخير من عملنا بالأشكال التي يحضر فيها الشّيب في مقدّمات السّتالي من جهة، ونتدبّر منازل الأبيات التي تدور على الشّيب وتكون بمثابة عنصر تخلّص في القصيدة من جهة ثانية، والغاية التي نجري إليها أن نقنع بفكرة أنّ الشّيب لم يكن في تجربة هذا الأديب توبة أخلاقيّة فحسب، بل كان في الآن نفسه توبة شعريّة، وسنتخّذ أربعة نماذج ندلّل بها على أن الكلام على الشّيب قد استحال في بعض القصائد وسيلة استجادها الشاعر ليعبر من (شعر الهزل) إلى (شعر الجدّ) معبّرًا عن هاتين التّوبتين.

أمّا النّموذج الأوّل فيرد فيه حديث الشّيب معنى من معاني مقدّمة غزليّة استهلّ بها الشّاعر قصيدة قالها يمدح السّلطان أبا محمّد نبهان ويهنّئه بزواجه: {من البسيط}.

هَلْ أنْجَزَتْ لكَ وَعْدَ الوَصْلِ أسمآءُ أم شانَ مَوْعودَها مَطْلٌ وإنسآءُ

وقد جاء الكلام على الشّيب في خاتمة المقدّمة الغزليّة، فكان طقس عبور من حديث الهوى و(الهزل) إلى حديث المدح و(الجدّ)، يقول: {من البسيط} (السّتالي،ص 1)

حتى إذا ما بياضُ الشَّيبِ أشرقَ في وراجع ليلِ الشَّبابِ تجلَّت منه ظلماءُ
وراجع الحلمُ حتَّى في الهوى سَمُجَت أشياءُ إذا حَسُنَت في الدّينِ اشياءُ
تباركَ اللهُ ما أحلى العفافَ إذا ما صحَّ مع صحَّة الإعلان إخفاءُ
والحمدُ لله ما أبهاهُ من زمنٍ أيّامُه ببني نبهانَ زهراءُ

سار الشّاعر في هذه القصيدة على سنّة الأوائل، إذ افتتح القول بالنّسيب، ثمّ قابل بين زمنين زمان الشّباب (زمن الأنا) وزمن الشّيب (زمن الأنا والآخر)، وعدّ الزّمن الثّاني أبهى الأزمان، لأنّه اقترن بأيّام بني نبهان، والحقيقة أنّ المقابلة بين (زمن النّسيب) و(زمن المدح) من جهة، والانتقال من المقدّمة الغزليّة إلى غرض المدح من خلال استحضار حديث الشّيب إنّما هو في نظرنا ضرب من التّوبة، وهذه التّوبة نراها على وجهين، وجه أخلاقي بمقتضاه فضّل السّتالي شعر الجدّ على شعر الهزل، ووجه فنيّ بموجبه تحوّلت القصيدة من فنّ النّسيب إلى فنّ المديح تحوّلًا معنويّا لا لفظيًّا وعبر التّخلّص من زمن الشّباب ونزقه إلى زمن الشّيخوخة ورصانته، وبذلك يمكن القول إنّ الشّاعر قد جعل الكلام على الشّيب وسيلة فنيّة ومقوّمًا بنائيًّا حتّى يؤمّن عبورًا سلسًا بين قسمي القصيدة.

وأمّا النّموذج الثّاني فغير بعيد في خصائصه العامّة عن النّموذج الأوّل، فقد كتب السّتالي مدحيّة في السّيد أبي عبد الله بن نبهان مطلعها:{ من البسيط} (المصدر نفسه، ص78).

يا دارَ جيرتنا والحيّ حُيّيت واحْتال مغناكِ في زيٍّ وتَبْييتِ

ومما جاء فيه قوله: {من البسيط} (المصدر نفسه، ص80).

صَبا الفتى ما صَبا والبيض وامقّة ولا تقابل في لهو وتيكيتِ
حتَّى إذا الشَّيب أجثى في مفارقه فبغضّه في الغواني بعد تبكيتِ

أَمســـى الكبير يُواري شَـيبَ لمتِـهِ ... خوفَ القلى ويداري قلَّة القوتِ
يُزجي القوافيَ من أَشْعـارِهِ مِـدَحـاً ... معَ العُفـاة سـراةً في السّباريتِ
حـتَّى تَـؤمَّ أَبا عـبـد الاله وقـد ... آليتُ ما حَظُّنا منهُ بمألوتِ

إنّ النّاظر في هذه القصيدة يلاحظ أنّ الشّاعر قد افتتحها بالنّسيب فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، ووصف المرأة وتغنّى بأيام الشّباب والصّبابة، ثم وصف حال الشّاعر الأشيب الذي وجد سلواه في تزجية القوافي، ومن ثم انبرى يعدّد خصال الممدوح وسجاياه، وبذلك يكون حديث الشيب مرّة أخرى وسيلة يخرج بها الشّاعر من قسم النّسيب إلى قسم المدح.

وأمّا النّموذج الثّالث فعينيّة تتكوّن من أربعة وثلاثين بيتًا طالعها: {من الطّويل }(المصدر نفسه، ص280).

تمتّع من شرخ الصّبا ما تمتّعا ... فلمّا تغشّى رأسه الشّيبُ ودّعا

والمتأمّل في هذه المدحيّة يلاحظ أنّ مقدّمتها – وهي في حديث الشّباب والشّيب – قد امتدّت على سبعة عشر بيتا، أي امتدّت على نصف القصيدة، وفي هذا المدى ما فيه من دلالة على الأهمّيّة التي يوليها السّتالي لمقدّمة الشّيب، وإذا نظرنا في الأبيات الواصلة الفاصلة بين المقدّمة وغرض المدح ألفينا الشّاعر يروم الانفصال عن (اللّهو) طلبًا (للقريض والمدح) يقول: {من الطّويل} (المصدر نفسه، ص282).

خُذا من لذيذ العيش ما قد طربْتما ... لهُ ودَعاني أهجُرِ اللّهْوَ أجمَعَا
على أنّني أصبحتُ والشّيبُ شامل ... أُحاذرُ من دَهري مآرب أَرْبَعَا
أرومُ قِرآء الضّيف والنّكْأ للعدى ... وقطْعَ الفَيافي والقريض المرصَّعَا
وأمْتدحُ السّادات مِن آل يَعْرُبٍ ... بَني عَمرِ طراًّ واشكُرهم مَعَا

لقد سار الشّاعر في هذه القصيدة على سنّة الأوائل، إذ افتتح القول بالنّسيب، ثمّ قابل بين زمنين زمان الشّباب (زمن الأنا) وزمن الشّيب (زمن الأنا والآخر)، وعدّ الثّاني أبهى زمن لأنّه اقترن بأيّام بني نبهان، وبعبارة أخرى يصبح الشيب مستملحًا محيلًا على زمن العفاف، وهو زمن مشتهى لأنّه "زمن بني نبهان".

والحقيقة أنّ المقابلة بين (زمن النّسيب) و(زمن المدح) هو ضرب من (التّوبة)، وهي توبة نراها على وجهين، وجه أخلاقيّ بمقتضاه فضل السّتالي (شعر الجدّ) على (شعر الهزل) ووجه فنّي بموجبه تحولّت القصيدة من فنّ النسيب إلى فنّ المديح تحوّلًا معنويًّا لا لفظيًّا، ولعلّه بهذا المعنى قال علي الغيضاوي "ولقد تكون غاية الشّاعر من الإشارة إلى كبرته التّوطئة إلى المدح على ما تقتضيه خطة الشّاعر المدّاح من توجيه القول ومن تهيئته، سواء باعتبار الشّيب ناهيا عن الصّبابة لصرف القول من المناسب إلى تعداد فضائل الممدوح أو باعتبار الكبرة حالًا من بين أحوال أخرى غيرها" (الغيضاوي، ج2، ص318).

وأمّا النّموذج الأخير ففيه تصريح بعبارة التّوبة التي بنينا عليها فكرة المقال برمّته، وهو يختزل في نظرنا هذه العبارة بمعنييها الدّيني والفنّي، يقول السّتالي: {من الطّويل} (السّتالي، ص 193)

ونحن نَشاوى من صِبى وبطالةٍ ... ألا إنّ شيطان الشّبيبة مارِدُ
فيا حسنَ دنيانا ويا طيبَ عيشنا ... لو أنَّ زماناً كان بالأمس عائدُ
بلى إنّ حكم الشّيب أَحسنُ حالةً ... لمن هو في لهو الشّبيبة زاهدُ
وكان على ما كان من لَعِب الصّبى ... نُؤمَّل عُمرًا فيه ذو الغيّ راشدُ
وإنّ بياضَ الشّيب يُحدثُ توبةً ... لها ينقضي لهوٌ ويُصلحَ فاسدُ
وهذا أَوان الحلم والرَّشد إنَّني ... لهديها ساعٍ ولله حامدُ
وللسّيد المعروف بالفضل مادِحٌ ... فقد أمكنت فيه القوافي الشّواردُ

لقد بني هذا المقطع على ثنائيّة والتّقبيح والتّحسين من جهة، وكان وسيلة للانتقال من مقدّمة القصيدة إلى غرضها من جهة ثانية، فالسّتالي قبّح زمن الشّباب على لذاذته، وحسّن زمن المشيب على مرارته. وهو يرى أنّه إذا شاب رأس المرء من سنين تتابعت وجب عليه أن يترك لهو الشّبيبة ولعب الصّبا وأن يتخلّص من كلّ مفسدة حتى تكون توبته توبةً نصوحًا، وإذا تمّ له ذلك سلك مسلكين اثنين: مسلك السّعي إلى الله سبحانه وتعالى، ومسلك المدح الذي خصّ به ملوك النّباهنة، والسّتالي استدعى الشّيب حتّى يجعله إطارًا مضمونيًّا لحديث التّوبة ووسيلة فنيّة للانتقال من مقدمة القصيدة إلى غرضها.

الخاتمة:

لقد تتبّعنا في هذه الدّراسة مظاهر التّعبير عن الشّيب في ديوان السّتالي. فتبيّن لنا أنّ الشّاعر قال في الشّيب وأكثر فيه القول، ونزلّه في مواقع مخصوصة من القصيدة. فهو يتصدّر مطالع القصائد من جهة. وهو يمثّل مقدّمة قائمة الذّات أحيانا من جهة ثانية. مقدّمة تنازع في رتبتها وقيمتها مقدّمات النّسيب والوقوف على الأطلال. وهو يمتدّ على مدى لافت للانتباه في القصائد من جهة ثالثة. وإذا نظرنا إلى معاني الشّيب في هذه التّجربة على هدي ثنائية الإبداع والاتّباع جاز لنا القول إنّ السّتالي وإن ردّد أصوات الشّعر العربي القديم فإنّ قصائده لم تخل من أوجه طرافة. فهو وإن قبّح المشيب لم يسرف في ذلك. إذ لم نره يتلهّف كثيرا على تولّي الشّباب وإدباره. ولم نجده يفني شعره في ترجيع أشجانه وأحزانه جزعا فزعا. بل إنّ السّياقات التي استكره فيه الكبر بدا فيها محبّا عاشقا لا يثنيه شيب عن اللّهو ولا تعقله سنّ عن التّصابي. وهو من جهة ثانية أطال القول في فضائل الشّيب وأسهب. ومن ثمة بدا لنا الشّيب محمدة ومكرمة بها يتبدّل الشّاعر حكمة بعد الصّبا.

ولعلّ أطرف ما يستوقف النّاظر في هذه التّجربة الشّعريّة الوظيفة التي نهض بها خطاب الشّيب في بناء القصيدة. ذلك أنّ الشّاعر قد جعله وسيلة ليخلص بها من المقدّمة إلى الغرض. وإذا رمنا مزيد التدقيق قلنا إنّ الشّاعر قد جعل أبيات المشيب وأقسامه في مواقع مخصوصة مميّزة فاصلة بين مقدّمات القصيدة وغرض المدح، فكانت عنصر تخلّص معنويّ استعاض به السّتالي عن وسائل التّخلّص اللّفظيّة (فدع ذا، عدّ عمّا ترى...). وبعبارة

موجزة كان المشيب طقسًا من طقوس العبور به يعرج الشّاعر من قسم النّسيب وما يقتضيه من كلام على متعة موجودة أو مفقودة إلى قسم المدح وما يقتضيه من عطف القلوب على محمود الخصال.

المصادر والمراجع

المصادر:

السّتالي، أبو بكر بن سعيد الخروصي (2005). **الدّيوان**. ط2، تحقيق عز الدين التّنوخي، وزارة التّراث والثقافة: سلطنة عمان.

المراجع الكتب:

البحتري، أبو عبادة. (د.ت). **الديوان**. تحقيق حسن كمال الصيرفي، دار المعارف: مصر.

الحجري، هلال (2013). **حداثة الأسلاف: إضاءات من الشّعر العُماني القديم**. مؤسّسة عمان للصّحافة والنّشر والإعلان: سلطنة عُمان.

الخشروم، عبد الرّزاق. (1982). **الغربة في الشّعر الجاهلي**. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب: دمشق.

الثّعالبي، أبو منصور. (1334هـ). **اللّطائف والظّرائف**. جمع الإمام المقدسي، مطبعة محمد صبيح: القاهرة.

درويش، أحمد. (1998). **تطوّر الأدب في عُمان**. ط1، دار غريب للطّباعة والنّشر.

ابن الرّومي، أبو الحسن علي. (1979). **الدّيوان**. تحقيق حسن نصّار، مطبعة دار الكتب: القاهرة.

روميّة، وهب أحمد. (1996). **شعرنا القديم والنّقد الجديد**. المجلس الوطني للثّقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة: ع207، الكويت.

السّكري، أبو سعيد. (1950). **شرح أشعار الهذليّين**. تحقيق عبد السّلام فرّاج، مطبعة المدني.

الصّائغ، عبد الإله. (1982). **الزّمن عند الشّعراء العرب قبل الإسلام**. دار الرّشيد: بغداد.

عبد بني الحسّاس، سحيم عبد بن الحسّاس. (1950). **الدّيوان**. تحقيق عبد العزيز الميمني، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر: القاهرة.

ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد. (1941). **العقد الفريد**. تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التّجاريّة الكبرى.

عطوان، حسين. (د.ت). **مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر الجاهلي**. دار المعارف: مصر.

علقمة الفحل، علقمة بن عبدة. (1969). **الدّيوان**. تحقيق لطفي الصّقال ودربة الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي: سوريا.

عليمات، يوسف. (2004). جماليات **التّحليل الثّقافي: الشّعر الجاهلي نموذجًا**. ط1، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر: بيروت.

الفارسي، سعيدة بنت خاطر. (2016). **العصر الذّهبي للشّعر في عمان: دولة النّباهنة**. ط1، بيت الغشّام: سلطنة عُمان.

فوغالي، باديس. (2008). **الزّمان والمكان في الشّـــعر الجاهلي**. عالم الكتب الحديث، جدارًا للكتاب العالمي للنّشر والتّوزيع: الأردن.

الدّوريات:

الحميري، سؤدد يوسف. (2019). أنسنة الشّباب والشّيب في الشّعر العربي قبل الإسلام. **مجلّة التّراث العلمي العربيّ**، ع43، ص273-298.

حسّـــان، نبراس حمد وأحمد، فراس عبد الرحمن. (2025). الشّـــاعر أبو بكر أحمد السّـــتالي (ت: 676هـ) أغراضـه الشّـعريّة وروافد الصّـورة عنده – دراسـة فنيّة، دراسـات: العلوم الإنسـانيّة والاجتماعيّة، م52، ع6، 2025، ص1-12.

الرّفوع، خليل عبد السّلام. (2008). الشّيب في الشّعر الجاهلي: أسبابه والمواقف منه وصوره المجازية. **المجلّة الأردنيّة في اللّغة العربيّة وآدابها**، م4، ع4، ص53-74.

السّلامي، ميساء صلاح. (2012). شعر الشّيب والشّباب في الأصمعيات. **مجلّة كليّة التّربية للبنات للعلوم الإنسانيّة**، م 6، ع10، ص137-148.

الشّـــاظوف، علي محمد. (2015). الاغتراب الشّـــيبي والزّمان عند ابن الرّومي. **مجلّة البحث العلمي في الآداب**، ع16، ص1-19.

الشّافعي، جلال الشّافعي. (2018). الشّباب والشّيب في شعر ابن المعتزّ دراسة موضوعيّة وفنيّة. **مجلّة كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة بدمنهور**، ع3، م5، ص688- 756.

العمري، زينب عبد العزيز. (1992). الشّيب والشّباب في الشّعر العربيّ القديم. **مجلّة كليّة الآداب**، جامعة بنها، م2، ع1، ص13-81.

كاتب، حسـن. (2000). مقدّمة الشّـيب والشّـباب في أراجيز رؤبة بن العجّاج. **مجلّة الآداب**، م5، ع1، ص115- 136.

المعموري، إسلام ثامر. (2023). ثنائية (الشّباب الشّيب) في شعر ابن زمرك الأندلسي. **مجلّة نسق**، م 37، ع5، ص371-383.